قطوف من ابداعات انسانية:

رحلة الوداع الأخير لسينما علاء كريم

القاهرة ـ «القدس العربي»

ـ من كمال القاضي:

برز من بين مخرجي جيل الوسط مجموعة أسماء كان علاء كريم واحدا منها، حيث بدأ بزوغ اسمه منذ تخرجه في معهد السينما منتصف السبعينات اذ كان ترتيبه في الدفعة متقدما جدا، علاوة على أنه أختير ضمن قليلين أرسلوا الى بعثة دراسية بالولايات المتحدة الأمريكية لدراسة تطور فن الاخراج والتصوير والأداء التمثيلي، وقد استمر علاء كريم حوالي أربع سنوات بالولايات المتحدة بعد انتهاء البعثة عمل خلالها في مجالات مختلفة بغرض اثراء الخبرة وتوفير ما يلزم من مدخرات، ثم عاد الى القاهرة ليبدأ رحلته الفنية مساعدا لأستاذه يوسف شاهين الذي كان يعتبره وحدة قياس النجاح في المجال السينمائي ومايسترو الاخراج في الشرق الأوسط، وبناء على هذه القناعة ارتبط المخرج الشاب باستاذه وشاركه في صنع عدة أفلام جاء أولها فيلم «حدوتة مصرية» الذي جسد حياة يوسف شاهين نفسه وحمل كثير من ملامحه الانسانية وجنونه الفني، ذلك الذي أخاف اليه نور الشريف رونقا خاصا في الأداء التمثيلي والاحساس بالشخصية والتشبع بها حتى النخاع، بيد أن التجربة نفسها أنضجت كل العاملين بها بما في ذلك مساعد المخرج الفتى كريم الحاضر بقوة في تلك السطور لاعتبارات الغياب الذي فرض برحيله مؤخرا عن دنيا الاخراج والسينما وعوالم الفكر والثقافة تلك الدوائر التي دخلها وهو لا يزال طالبا بأكاديمية الفنون يتحسس الخطا نحو غوايته ويتلمس طريق النجاح، لم ينقطع علاء كريم عن المدرسة التي تخرج فيها ولا عن أستاذه صاحب الفضل الأكبر عليه برغم انفراده بتجارب سينمائية كبرى فيما بعد وتحقيقه للاستقلال الكامل من الناحية الفنية، لا سيما فيما أبدعه من أفلام تسجيلية مثلت له نقلة ذكية وجعلته واحدا من مخرجي السينما التسجيلية المرموقين، حيث كان لفيلميه «رشيد 83، القلعة» دوياً مذهلا صنفه كواحد من المخرجين المهمين في هذا المجال ومهد له طريق العبور الى السينما الروائية الطويلة باعتبارها شهادة الاعتراف الموثقة بامكانيات المخرج ومهاراته والجسر الذي يربط بينه وبين الجمهور، فأول تجربة روائية طويلة للتلميذ النجيب كانت فيلم «اشتباه» بطولة نجلاء فتحي النجمة التي مكنته من تثبيت أقدامه على أرضية ملعب الجوائز في فيلم «الكراج» الذي حصد «29» جائزة دولية ومحلية في كافة التخصصات وأفرع الابداع وأستمر عرضه نحو «15» أسبوعا هيمنت خلالها الجماهير على شباك التذاكر لتكتب شهادة ميلاد جديدة لمخرجه القادم من كاليفورنيا بتكنيك اخراجي متطور وفكر يجمع بين الكلاسيكية المحافظة والحداثة المتمردة.

سبق فيلم «الكراج» بزمن قصير فيلما آخر اعتبره النقاد محطة انتقالية، لذا كان وجوبا علينا أن نرجئ الحديث عنه قليلا فعلى قدر تميزه من الناحية الاخراجية والفنية البحتة واعتماده على نجمين كبيرين، حسين فهمي ورغدة، الا أنه أدرج ضمن الأفلام التقليدية، هذا الفيلم هو « 85 جنايات» ينتمي الى أفلام الاثارة والأكشن، فأحداثه تدور داخل سجن النساء ويعالج بشكل حرفي قضية المخدرات من منظور اجتماعي ـ جنائي ويهدف الى فضح عصابات التهريب ويلعب على أوتار انسانية كثيرا ما استهوت المخرج الراحل طوال مسيرته الفنية، حيث كان ينظر الى السينما نظرة مثالية ويعتبرها أداة اصلاح وتهذيب وربما يرجع ذلك الى طبيعة نشأته الشعبية بحي السيدة زينب وتمسكه بالقيم الأخلاقية التي تصور أنها ضرورة حتمية في الخطاب الفني الموجه على خلفية تكوينه وتربيته الخاصة وانفصاله النسبي عن حركة الحداثة ونظرية الغاية تبرر الوسيلة، وان كان قد خضع لها في فيلمه «امرأة وخمس رجال» الذي قامت ببطولته فيفي عبده وآخذه عليه النقاد لما برهن من توطئة أجبر عليها لظروف الحصار وقلة فرص الانتاج، وربما ذلك ما جعله يتوجه الى الدراما التليفزيونية ويقبل على اخراج مسلسل «وادي فيران» الذي راهن عليه فخسر الرهان ودخل بفضله في معارك عديدة اشتبك فيها مع أكثر من طرف ـ النقاد والجمهور وجهة الانتاج ـ وظلت خلافاته تفاقم الى أن تقطعت به أسباب العودة مرة أخرى الى ذات التوهج الأول فأنقلب على عقبيه يجدد رحلة البحث المضنية عن سيناريو قوي يعيد اليه هيبته وتوازنه فمنيّ بحظ تعس للمرة الثانية بفضل حملة صحفية أطلقت ضده ليس لشيء غير أن أحداث السيناريو الذي كتبته السيناريست ماجدة خير الله بعنوان: «أول مرة تحب» تشابهت مع واقعة شهيرة لنجمة كبيرة فظنت أنها المقصودة وحشدت الجيوش ضد الفيلم والكاتبة والمخرج ونجحوا في اطفاء قناديل الفرحة وكان ذلك بمثابة نكسة جديدة لعلاء كريم الذي بدأ يعاني ويلات الركود والبطالة ويشعر بالاضطهاد نتيجة تقلص نشاطه الفني الى حد قبول العمل في سهرات تليفزيونية أقل من امكانياته بكثير وان حالفه الحظ في بعض هذه السهرات كمردود متواضع لجهده الكبير فعلى سبيل المثال حققت سهرة «راكبة المقعد الخلفي» دويا جماهيريا يليق بحجمها الزمني ولكنه أبدا لم يشبع رغبة علاء الجامحة في استعادة لياقته كمخرج كبير وضع تحت الأضواء لفترة طويلة وكاد يجاوز أقرانه بمسافات بعيدة رغم سوء ما تعرض له من احباطات وكبوات طالما رواها بنفسه وقص تفاصيلها على أصدقائه المقربين بزهو يشي بانتصار كان يتبدى دائما في عينيه وهو مستغرق في الحكي عن قسوة الحياة في أمريكا وبرودة المشاعر التي تعادل برودة الطقس، ظل علاء كريم حريصا على التواجد في وسائل الاعلام كمعادل للتواجد الفني، ولأنه خلوقا ودبلوماسيا ومثابرا احتفظ لنفسه بمكانة فائقة وصورة جميلة وظل يجدد في نفسه الطاقة والحماس حتى في أحلك ظروفه النفسية، اذ دأب على تدريس السينما في الأكاديمية التي تخرج فيها «أكاديمية الفنون» المصرية وامتد نشاطه ليواصل عطاؤه في جامعة « 6 أكتوبر» الخاصة وتخرج من تحت يديه أصحاب مواهب كان حريصا على أن يلقنهم دروس الحياة كما استوعبها، فالحكمة تسبق عنده الفن، اذ لا ابداع بدون فضيلة وأن الاحساس الراقي يجدد حيوية المبدع ويفتح أمامه الأبواب الموصدة، رحم الله علاء كريم عاش على هذه القناعة ومات عليها.

لقطة من فيلم «الكراج» لعلاء كريم

مدير مهرجان دمشق المسرحي الثالث عشر محبط ووزارة الثقافة تقيم دورة صحافية للمبتدئين على الهامش!

دمشق ـ «القدس العربي»

ـ من أحمد الخليل:

شعور بالاحباط يسيطر على الفنان جهاد الزغبي مدير مهرجان دمشق المسرحي الثالث عشر (مدير المسارح والموسيقى)... والسبب؟!

السبب احساسه بأنه لن يكون مديرا لمهرجان دمشق الرابع عشر، فبعض الموظفين ذوي الحظوة والدعم يحاربونه ويدسون عليه لدى وزير الثقافة، رغم سعيه لارضاء جميع الاطراف في المهرجان وخارج المهرجان، وشعور الاحباط هذا ناتج أساسا عن كونه رجلا لا يعترض ولا يحب الاعتراض، فما يطلبه مسؤولو الوزارة من المديرية مجاب ولا يعرف سوى كلمة نعم.

وبعد كل هذا تستطيع مديرة العلاقات العامة في المديرية أن تهدده وتشكو أمره للوزير لانه عاتبها برقة على أخطائها في التنظيم واستقبال الضيوف والتعامل معهم.. وهذه هي المرة الثانية التي يحصل فيها خلاف كبير بين الاثنين ففي حلب وفي بدايات الاحتفال بالمدينة كعاصمة للثقافة الاسلامية تشاجرا وعنفته في الشارع والان تهدده فإلى متى التحمل؟!

هذا في فندق الشام أما في مسرح القباني فشهدت كواليسه غضبا شديدا من الفنان هشام كفارنة الذي اعتبر مهرجان دمشق المسرحي مهرجان علاقات عامة وليس مهرجانا لفن المسرح كما أن غضبه ازداد لان ادارة المهرجان دعت عروضا مسرحية رفضتها لجنة المشاهدة في المهرجان الامر الذي اعتبرة تجاوزا واستهتارا برأي اللجنة!! ويخالف الرأي مدير المهرجان: لان المهرجان قدم عروضا جيدة وهذا هو الاهم وكل ما تبقى هوامش ومتفرقات.

«المنصة» مجلة حائط!!

«المنصة» مجلة يومية تصدر عن مهرجان دمشق المسرحي توثق فعالياته اليومية فهي صدى حقيقي للمهرجان!!

يصل عدد محرري «المنصة» الى خمسين محررا أي ثلث موظفي قناة الجزيرة الفضائية ويقسم المحررون الى ثلاث فئات:

هيئة التحرير ـ محررون مشاركون ـ هيئة تحرير تنفيذية.

هيئة التحرير مشكلة من ذكور النحل (مدير عام الهيئة العامة للاذاعة والتلفزيون ومديرة التلفزيون ومدير الاذاعة ومديرة القناة الأولى ومدير المكتب الصحافي في وزارة الثقافة).

ورئيس التحرير هو مدير مكتب ماجد حليمة غسان شهاب.

وهناك مدير تحرير للمجلة، في البداية كان لدينا مدير تحرير واحد (عزيزة سبيني)، وبعد ارتفاع أسهم الموسيقي معن خليفة رفعه نادر أصفهاني لدرجة مدير تحرير.

المحررون المشاركون حوالي 23 صحافيا وموظفا (الاعداد الاربعة الاولى)!!

بينما هيئة التحرير التنفيذية ستة موظفين وهناك أمينة السر وأربعة مصورين اضافة لسكرتاريا التحرير... أي أن المجلة ذات خصوصية سورية حيث لا يوجد في العالم كله مجلة أو صحيفة لها ثلاث هيئات تحرير!!

والطريف في المجلة أن رئيس التحرير الفعلي أطلق على نفسه لقب رئيس التحرير (زائر) نادر أصفهاني، والاطرف أن ادارة المهرجان وبعض المتنفذين بالوزارة زجوا كثيرا من موظفيهم في «المنصة» وأطلقوا عليهم محررين... مدير المهرجان قال ما المانع (خليهم يدرّبوا).

وعند سؤاله عن سبب ادخال احدى الموظفات الى هيئة التحرير قال: بدي ارتاح من نقها ومن تهديداتها لي برجال الامن أصدقائها.

والاكثر طرافة أن بعض زملائنا المخضرمين يكتب لبعض فتيات «المنصة» أملا برغبات مدفونة، فنرى موادهن منشورة ومزينة بصورهن التي التقطها بحرفنة مصور المجلة غياث حبوب فيظهرن بوضعية (المفكر جالسا).

أما نجم المجلة فكان بحق الضابط السابق نادر أصفهاني الذي يغير صورته مع الافتتاحية كل يوم لتناسب الافكار المطروحة في تنظيراته المسرحية.

ومن طرائف «المنصة» أيضا نشر صورة الراحل ممدوح عدوان مع مقال عن سعد الله ونوس ونشر صورة الزميل أنور بدر مع مادة أنور محمد بينما بطل الانتاج الحقيقي في «المنصة» هو الزميل المستجد الموسيقي معن خليفة.

وبناء على ما سبق انسحب من هيئة تحرير «المنصة» بعد صدور العدد الاول كل من الزملاء (حسب زمن الانسحاب): وليد اسعيد ـ جوان جان ـ أمينة عباس ـ غسان شما ـ مصطفى علوش ـ أحمد الخليل ـ راشد عيسى ـ أنور بدر.... وتغيب الزميل ماهر عزام.. بشكل دائم عن «المنصة»... بينما استمر المتدربون مع الزملاء نادر وعزيزة سبيني... حيث ستمنح ادراة المهرجان شهادة خبرة صحافية لموظفي المديرية والوزارة في حفل الختام تؤهلهم للعمل في الخليج!!

كثيرون قالوا: الله يذكرك بالخير يا زهير رمضان ويا عثمان عثمان!!

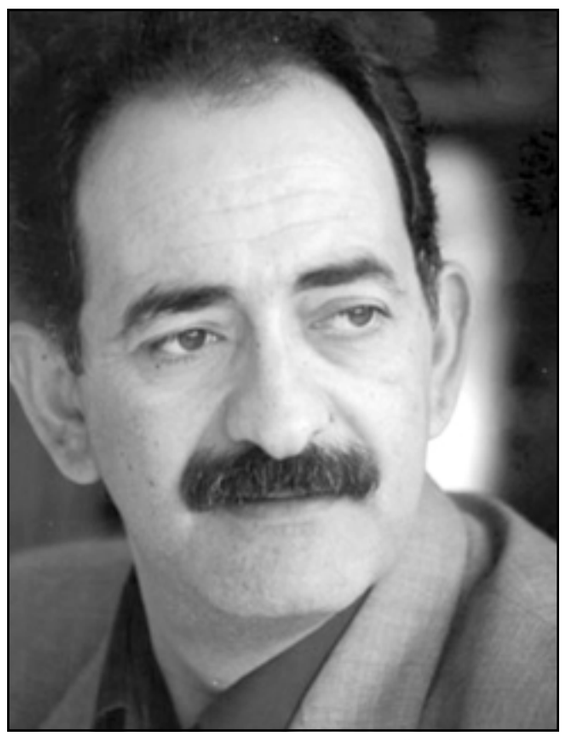

جهاد الزغبي (القدس العربي)

قص

أعمامه البخلاء

فيصل عبد الحسن*

(1)

■ كل الحكايات التي تدور على ألسنة أعمامه هي في أحكام التدبير، والتقليل من الإنفاق على قدر أن يبقوا أحياء، أو هكذا يظن من يراهم وهم في حقيقة الأمر ليسوا أحياء بل هم للاموات اقرب شبها وأكثر شحوبا منهم في أحيان كثيرة، فذلك الزبد الأبيض حول شفاههم هو الدليل والنظرات الفارغة في عيون صغارهم وكبارهم ما هي إلا صور العالم مضببة بعماء الجوع الذي منع عنهم رؤية الأشياء كما هي بل يرونها كما يصورها لهم جوعهم فالديك الذي يصيح فوق التنور ما هو الا ديك أنضجت النار قليه حد الاحمرار يتوسد صفحة رز متبل تتصاعد منه روائح مطيبات هندية، وذلك الجدي الذي يركض وراء أمه والراعي الغليظ خلق الملابس الذي يراقبه ما هو إلا لفافة لحم «شاورما» يتصاعد منها دخان الشواء وتنقط دسما فوق خبز اصفر اللون وسعت استداراته الأيدي الماهرة. لم يكونو فقراء فقد كان بمستطاع أعمامه أن يلبوا كل رغائبهم ورغائب عائلاتهم وأهل الحي الذي يسكنون بما يملكون من مال كثير لكنهم رضعوا البخل رضاعة عن أجدادهم وعندما استمع لما يتحدثون به ليلا مفصلين فلسفتهم في البخل فيعتقد أنه استمع إلى آراء فلاسفة كبار يحاضرون طوال السنة في جامعات متخصصة بدراسة هذا اللون من السلوك البشري وان أعمامه تفوقوا على بروفسورات تلك الجامعات فقد استمعت في احدى الليالي إلى احدهم كان صحافيا وهو يحدثهم عن الفرق بين تسمية بخيل وسخي مقارنا بين التسميتين بعد أن شتم الناس أوسط أخوته الذي كان صاحب دكان بقالة وسط المدينة ونعتوه بالبخل والرداءة فقال لهم الصحافي وهم يتحلقون حول راديو قديم لا ادري من أي سوق مستعملات حصلوا عليه وقد أوصلوا إليه حزمة من البطاريات المستعملة الملفوفة بورق جرائد وزنروا المذياع بها حفاظا على الكهرباء من التبذير والراديو يذيع أخبار الإذاعة البريطانية بالعربية بصوت مدو فبشره الصحافي مبتسما قائلا انهم حين نعتوه بالبخل فقد امتدحوه.

وفسر قوله بأن تسمية بخيل تعني أنه صاحب مال ومع المال شيء من الشدة والحزم في إنفاقه وتبذيره. وهذا يعني أيضا استمرار المال بين يديه وصفة الغنى على صاحبه ما دام انه لا يخرج منه إلا النزر اليسير في كل مرة. أما لو أنهم نعتوه بالسخاء فان التسمية تعني انه صاحب مال ولكن إلى جانب هذا المال هناك سهولة في تبذيره. ثم خوص بعينيه وقلص حاجبيه وأخذ يفسر لهم باهتمام:

بالرغم من أن صفة البخل تجمع بين الذم والمال والسخاء يجمع بين المدح والمال إلا أن المال اثبت في يد البخيل بينما هو اقرب إلى الطيران من يد السخي لأجل مديح لا يدر ربحا فالمديح كما تعرفون ليس إلا هواء. وهو كلام فارغ لا يقدم ولا يؤخر.

واخذ يعدد لهم أسماء أسخياء افتقروا وجاؤوا إلى البخلاء يرجون الحصول على طعام يومهم. فسأله احدهم: إن كان يقصد بكلمة افتقر بمعنى صار مفلسا. فضحك الصحافي من جهل أخيه حتى تمدد على ظهره وقال له: مفلس يا أخي في قواميس اللغة العربية تعني انه صار صاحب فلوس كثيرة.. فهي على وزن مشعر التي نقولها حين نرى صاحب شعر كثيف.

فضحك بقية إخوانه من جهل عمهم البقال ونظروا إلى أخيهم الصحافي نظرة إجلال وإكبار وفي هذه الساعة من الليل بالذات التاسعة مساء ككل ليلة خميس تدق في المذياع دقات ساعة (بك بن) مضخمة ليعلن المذيع بعدها نشرة الأخبار فيسمعون صوت الهازل العابث الذي بلغ من عبثه وهزله أنه يقصد بيتهم قادما من الناحية الأخرى من المدينة بواسطة الحافلة قبل الأخيرة ويكمن قريبا من دار الجد ليغير أولاده ببخلهم بصوت عال عبر الشارع الضيق فيهرع أعمامه إلى نوافذ البيت ينظرون إليه ويبادلونه سبابا بسباب حتى جدهم يظهر له وبيده فانوس متعثرا بثوبه القديم حافي القدمين عاري الرأس مشيبه ويمشي من غرفته فوق السطح ليرد على الهازل العابث بأقبح الشتم والعابث يضحك من شتمهم فيزداد غيظهم ويزيدون من شتمه والرجل يضحك ويضحك حتى يوشك على الوقوع على جنبه من شدة الضحك.. ويروي بعض جيرانهم أنهم يرون هذا العابث يعود إلى بيته بعد هذا الفصل الطويل من الضحك على أعمامه بواسطة الحافلة الأخيرة. كأنما أنجز واجبا وهكذا كل ليلة خميس في التاسعة مساء أو بعدها بقليل يحدث هذا الفصل المكرر امام بيتهم، ولاحتساب أعمامه فهم يكتفون بشتمه قائلين: شتما بشتم. ولن يجعلنا هذا الأحمق نتهور لنفعل شيئا آخر.

جيرانهم ينعتونهم باليهود وبيتهم يسمى عند الأدلاء والسماسرة ببيت اليهود والجميع يعلمون أنهم مسلمون أبا عن جد منذ وصول الدعوة الإسلامية إلى بلادنا وقد جاءت التسمية عليهم كما يروون أنه في يوم من الأيام عندما كان الحي الذي يسكنونه جديدا ولم يكن فيه من البيوت غير بيت الجد وبيت آخر في طرف الحي وفي احد الأيام ولسبب ما ركض ذاك الجار الوحيد وراء ابنه وامسك به قريبا من بيت الجد وأخذ يضربه ضربا مبرحا لا رحمة فيه فخرج له الجد بلحيته البيضاء وثوبه القصير ومعه أبناؤه السبعة وتحلقوا حول جارهم الذي يضرب ابنه بلا رحمة وهم بثيابهم الحائلة الألوان ولحاهم النامية ووجوههم الناحلة الصفراء ولكن لم يمد أحد منهم يدا لحماية الولد الصغير الذي كان يتوسل بهم أن يحموه من ضرب أبيه واكتفوا بالتحديق إلى الجار وهو يضرب ابنه وكان الولد يزيد من توسله بالجد ويرجوه أن يمنعوا أباه من ضربه لكنهم لم يمدوا أيديهم واكتفوا بالنظر لما يجري أمامهم. وبعد أن تعب الرجل من ضرب ابنه الذي أوشك على الهلاك.. رفع وجهه ونظر بوجه الجد وقال: هل انتم يهود؟

وعندما لم يجبه احد قال:

لو لم تكونوا كذلك لما وقفتم دون أن تتدخلوا وانتم ترونني على وشك أن اقتل ابني وهو يتوسل بكم أن تحموه..

ومن ذلك اليوم لصقت تسمية اليهود بأعمامه وأبيهم حتى أن أطفال الحي يسمون أمهم التي لا تستطيع أن ترى بوضوح بإحدى عينيها بسبب الماء الأبيض «الجنية العمياء».

يتذكر دائما ما قاله له عمه ـ الصحافي ـ وهو يعلمه ضرورة الاقتصاد فقد قال له يوما إذا تأملت هيئتي وقلت لكل شيء مستعمل فوق جسدي عد إلي صاحبك، سأصير عاريا. أما ذلك المعطف الرمادي الذي ارتديه فهو يرتديه ولا يدري أحد بالضبط منذ متى.. ربما منذ وعى وجوده الخاص عن بقية الناس. وصارت عيناه تميزان بين ملابس كل واحد من البشر على حدة. فهو في الصيف يزيل بطانته الصوفية، وفي الشتاء يعيدها فيبدو في الصيف والشتاء مريبا وكان يفرح حين يصفه زملاؤه في الجريدة براسبوتين أو مسخ كافكا ويتذكر أنه خرج معه عندما كان عمره لا يتجاوز العاشرة وكان ممسكا بيده في الشارع ويرشده كيف يسير بحذائه دون أن يجعله يحتك كثيرا بإسفلت الشارع لئلا يبلى بسرعة، فمرت بهما جنازة وكان خلف الجنازة حشد من المشيعين وامرأة تصرخ بين النساء: بك يذهبون.. إلى بيت لا فراش فيه ولا غطاء. لا كسرة خبز.. ولا كساء.. فقال لعمه ببراءة: يا عمي سيأخذون الجنازة إلى بيت جدي..

فوقف العم من المسير متعجبا، وسأل: كيف عرفت؟

فقال له: ألم تسمع ما قالته المرأة؟ لقد عددت صفات بيت جدي.

فضحك عمه حتى أوشك على الاختناق، وعندما كبر الفتى اخذ يراقب ندبة سوداء ظاهرة على جبهته توحي أن عمه من المصلين القانتين..التقاة. وحقيقة تلك الندبة يعرفها فهي اثر ضربة نالها العم في شبابه بعقب حذاء نسائي مدبب نتيجة تحرشه بامرأة جميلة في حافلة مزدحمة وكانت السيدة معروفة بشراستها وعنفها عندما ترد على المتغزلين بجمالها فماذا يا ترى يكون ردها على الوقحين الذين تجاوزوا كلمات الغزل العابرة إلى الفعل الوقح.. ولشدة الضربة اخبره طبيب المستشفى الحكومي بعد ليلة من المراقبة السريرية أنها ضربة لا يمحى أثرها من جبينه وانه سيقابل بها الله يوم الحساب كما ان شفتي العم قد اصطبغتا بسواد لا يمحى. ويقول حساده الصحافيون عن ذلك اللون الغريب الغامق الذي لصق بشفتيه أنه بسبب تقبيله الدائم لأحذية المسؤولين ورؤساء التحرير لأجل ان يحصل على باب رزق ثابت من كتابة عمود أسبوعي حوله فيما بعد إلى ما يشبه الإعلان عن شيء ما يقبض عنه مقدما من صاحب الإعلان. ولشدة بخله فانه كان يعمد إلى الاستيلاء على الكتب التي يريد قراءتها من معارفه، ولا يقرأها من بدايتها كما يفعل بقية خلق الله بل يبدأ بقراءتها من نهاية الكتاب. وحين يسأله أحد لماذا يفعل ذلك.. يجيبه أنه يفعل ذلك لتطويل مدة القراءة إلى الضعف فهو سيعيد القراءة مجددا من البداية إلى النهاية. وعندما أراد أن يتزوج فضل أن تكون زوجته امرأة مطلقة صاحبة مال وعقار أكبر منه سنا لئلا يطلب منه أهل الزوجة العذراء مهرا مرتفعا وحفلة عرس يضطر فيها إلى ان يصرف مالا كثيرا من اجل الاحتفال وطعام عشاء للمهنئين. وكان يقول عن أشجع الرجال في العالم:

انه ذلك الرجل الذي ينظر الناس تأكل طعامه فلا تعمى عيناه ولا تنشق مرارته أو يصاب بالشلل أو يموت بالسكتة القلبية.

(2)

عمه الصحافي اللامع هو أول من ادخل للنقد الأدبي مصطلحات غريبة لم تستخدم من قبل وشاع استخدامها بعد ان تناولها في مقالاته النقدية ومنها على سبيل المثال مصطلح النقد النقدي بمعنى أن لا يتم نقد كتاب كاتب إن لم يدفع الكاتب المنقود نقودا جزاء الكتابة عنه وإشهار كتابه وتوسع في استخدام المصطلح فصارت هناك قصة دينارية ورواية ألفية وفيلم مليوني عند هبوط قيمة الدينار مقابل الدولار لأقل قيمة وعند ارتفاع ثمنه يعود إلى المصطلح السابق فيحذف كلمة مليوني ويضع بدلها تسمية النقد الألفي. ثم ابتكر مصطلحات أخذ الآخرون يستخدمونها دون ان يعرفوا معناها مثل التقعر الخيالي في النص والواقعية الإيهامية والواقعية الاشكالوية، إضافة إلى مشتقات عبارة فقر الدم مثل الفقر اللوني في النص التي يختصرها عادة حين تتكرر بكلمة جامعة هي الفقلونصية. وغير ذلك من عشرات المصطلحات غير المفهومة ولا المعروفة في النقد الأدبي قبل ولوجه هذه الساحة ويتذكر أن امرأته الأولى قبل أن يستولي على أموالها وعقاراتها ويطلقها كانت تعيره ببخله وقد أقسمت عليه بعد الطلاق قائلة في المحكمة الشرعية: والله ما يقيم الفأر في بيته إلا لحب الوطن وإلا فهو يسترزق طعامه من بيوت الجيران.

وقد كان في صغره كما يروي عنه أبوه ضاحكا مسرورا من شدة حزمه ونباهته انه كان حين تضع أمه أمامه صحن الطعام يقوم بتقسيم الطعام إلى أقسام صغيرة يوزعها في الصحن ويجعل وقتا طويلا بين لقمة يتناولها وأخرى تتلوها وعندما يتناول اللقمة الجديدة يبسمل ويحمدل ليبعد الشيطان لئلا يأخذ منها شيئا أثناء نقلها إلى فمه.. وحين تسأله أمه لماذا يفعل ذلك، يجيبها بتلقائية: «إنه يخاف إن أكل بسرعة لقيمات كبيرة أن ينتهي الطعام دون أن يشبع. وبسبب هذا البطء في تناوله الطعام كان يغفو في جلسته أمام الصحن والطعام لم ينفد بعد.

كان الأب في الأيام الخوالي يبعث ثلاثة من أولاده الأشداء ويطلب منهم ان يغسلوا أيديهم بالماء والصابون جيدا وهي من المرات القليلة كل أسبوع التي يبذر فيها كل هذا المقدار من الصابون. ويطلب منهم ان يذهبوا إلى مهمتهم. فيذهب كل واحد منهم إلى جزار من جزاري السوق ويشرع كل واحد منهم على حدة بلطم أفخاذ اللحم المعلقة في محل الجزار بباطن كفه عدة مرات وبعد ذلك يخرجون من دكاكين الجزارين دون أن يشتروا شيئا من اللحم وفي البيت ينتظرهم أبوهم وقد امسك بين يديه وعاء فيه ماء قليل فيغسلون أيديهم المضرجة بفتات اللحم في الماء وسط ضحكات الفوز والكسب المجاني ويوضع الغسيل بعد ذلك فوق مرق الخضار الذي تعده الجدة ويثردون ذلك اليوم خبزهم في مرق دسم فيه رائحة اللحم وطعمه.

(3)

خلال سنوات القحط شعروا ان الوضع المزري لأحوال الناس قد عدل وضعهم وصار الجميع سواء فلن يعيرهم أحد بسبب بخلهم حتى ذلك الهازل العابث زائر الساعة التاسعة ليلا توقف عن الطواف حول بيتهم يوم الخميس من كل أسبوع ليعيرهم ببخلهم فقد صار الناس سواء في البخل، وسنوات الجوع هي الفترة التي استعادوا فيها إنسانيتهم ورباطهم الروحي بالجيران وهم الآن يعيشون فترة ازدهار فكري لا مثيل لها وقد وصف الصحافي فترة القحط بالفترة التاريخية التي ينضج فيها الإنسان ويصير واقعيا إن الوضع السابق هو الوضع الخطأ وان المفردات الفكرية زمن القحط هي تعابيرهم التي أضاعوها لفترة طويلة فهم مثلا يرددون ما قاله سيدنا المسيح وقد رأى رجلا يأكل لحما: «لحم يأكل لحما» أو أقوال الاقدمين مثل: «ما اهلك الناس إلا الأحمران : اللحم والنبيذ.. وما اهلك الناس إلا الأصفران: الذهب والزعفران».

أو قولهم عن امهر الأطباء: ان عامة أهل القبور إنما ماتوا بالتخمة وليس من قلة الطعام. وقولهم: ان مدمن اللحم كمدمن الخمر. كما ان الأخوين إذا اجتمعا وطلب أحدهما من الآخر أن يأكلا معا في صحن واحد اتهمه الآخر قائلا معي رغيف خبز ومعك رغيف مثله ولولا انك تريد أن تأكل أكثر من رغيفك لما قلت لي تعال لنأكل في صحن واحد. صار الجود عندهم فسوقا.

والسخاء صار من وسوسات الشياطين. وفسر الصحافي في عموده اليومي أن الرجفة والصاعقة التي أخذت أهل مدين وعاد الأولى في قديم الزمان كانت بسبب سخاء كان فيهم وان الريح التي أهلكت عادا كانت بسبب أن طعامهم كان مبذولا للباحثين عن عمل من الأمم الأخرى في بلادهم.. وان النقد أساس كل نقد أدبي وان ثقافة البلاد استعادت توازنها وصارت الكتب تطبع بربع كمية الورق الذي كانت تطبعه في زمن التبذير لتوفر الحكومة الورق الأبيض لطبع العملة الوطنية وهي الغاية الأسمى لصنع هذا الورق الأبيض الصقيل أما تبذيره في صناعة الكتب وطبع الصحف فذلك من الحمق وسوء التدبير.

(4)

أخيرا نعم أخيرا وجد الناس أنفسهم وتوازنوا مع واقعهم وشعروا أنهم في الوضع الاجتماعي الصحيح وبإمكانهم الآن فقط ان يضحكوا ملء أفواههم من بلايا وموبقات عهد الخير السابق وقد كانوا يعيرونهم بما ينبغي تكريمهم بسببه ومن لا يعرف ان من الخير أن تقول (لا) برأس مرفوعة لمن يطلب الإحسان منك بدلا من ان تقول (نعم) برأس مطأطأة ويدك مرتكبة تبحث عن المحفظة في الجيوب فلا خير يرجى منه.

* كاتب وصحافي عراقي مقيم في المغرب